مفهوم الزمن التاريخي
إحاطة نظرية إبستيمولوجية

ذ. معاد البوريمي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي لمادة التاريخ والجغرافيا، فاس
طالب باحث في سلك الدكتوراه
مختبر العلوم الإنسانية التطبيقية
المدرسة العليا للأستاذة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس
المغرب

الملخص

يستكشف هذا المقال أحد الركائز الأساسية للممارسة التاريخية، وهو مفهوم الزمن التاريخي، من منظور إبستيمولوجي. نبدأ بتقديم تعريفات الزمن المتنوعة في اللغة والمصادر الأدبية والفكر الفلسفي، مستعرضين خصائصه العامة، لنستنتج وجود أزمنة متعددة تعتمد على الزاوية والمقياس المستخدم. في القسم الثاني، نغوص في الزمن التاريخي، موضحين أهميته كعنصر حيوي في تشكيل المعاني والوقائع التاريخية من خلال استعراض وجهات نظر المؤرخين عبر العصور، بدءًا من المؤرخين القدامى بمختلف أصولهم، مروراً بمؤرخي العصور الوسطى، وصولاً إلى مؤرخي العصر الحديث ومدرسة الحوليات التي قدمت رؤى جديدة حول الزمن التاريخي. في القسم الأخير، نتناول أدوات قياس الزمن التاريخي، مركّزين على الكرونولوجيا والتحقيب كوسيلتين أساسيتين.

يسعى هذا المقال إلى إلقاء الضوء على العلاقة العميقة بين الزمن والتاريخ، مبرزًا دورهما المتكامل في فهم الأحداث الإنسانية

مفاهيم مفاتيح: الزمن، الزمن التاريخي، التحقيب، الكرونولوجيا.

Abstract:

This article explores one of the Fundamental pillars of historical practice: the concept of historical time, from an epistemological perspective. We begin by presenting the diverse definitions of time found in language, literary sources, and philosophical thought, reviewing its general characteristics to conclude that multiple times exist, depending on the angle and scale from which the concept is viewed. In the second section, we delve into historical time, highlighting its importance as a vital element in shaping historical meanings and events by examining the viewpoints of historians across different eras, starting with ancient historians of various origins, moving through medieval historians, and culminating with modern historians and the Annales School, which introduced new perspectives on historical time. In the final section, we discuss the tools for measuring historical time, focusing on chronology and periodization as essential methods.

This article aims to shed light on the deep relationship between time and history, emphasizing their integrated role in understanding human events.

Keywords: Time, Historical Time, Periodization, Chronology.

المقدمة:

يعتبر الزمان من المواضيع الأساسية والحساسة التي ترتبط بالإنسان ارتباطا وثيقا حيث لا نكاد نتناول موضوعا من مواضيع البحث العلمي أو الفلسفي أو الديني أو الفني أو التاريخي، إلا ونجد فكرة الزمن تشكل إطار البحث وترافق مراحله ومشاكله من البداية إلى النهاية، فلا نكاد نضبط تاريخا محددا يشكل بداية اهتمام الانسان بفكرة الزمان، فالاهتمام بهذه الفكرة قديم قدم الانسان، وحديث حداثة طموحاته وأحلامه، الزمان هذه الفكرة البسيطة التي لا يجهل أهميتها أحد، هذه الفكرة التي قال عنها الفيلسوف العظيم القديس **أوغسطينوس (Augustin):** "ما الزمان؟ حينما أسأل عنه أعرفه، وبجرد ما يتعلق الأمر بتفسيره فإنني لا أعرفه أبدا"[1]

إنه نفس السؤال الذي نطرحه في هذه الورقة البحثية، ما هو الزمن؟ وكيف تم تداوله عند المؤرخون والمدارس التاريخية؟ وما هي أهم الأدوات لقياسه؟

1- مفهوم الزمن:

الزمن والزمان في اللغة العربية كلمتان مرادفتان من حيث المعنى والدلالة فهو اسم لقليل الوقت وكثيره، وجمعه أزمان وأزمنة وأزمن، وعامله مزامنة من الزمن، كما يقال مشاهرة من الشهر.[2] أما في اللغة الفرنسية فالحد Temps مشتق من الجذر الهندو أوربي Tem الذي يعني "يقطع couper"، الزمن يدل إذن على نوع من القطع، يفصل عنصر أو فرد عن الكل، ومنه فالزمن يعرف كفصل عناصر indivis (اللحظات التي تتعاقب، وكإعادة توحيد لهذه العناصر، في حدث محدد عن طريق تركيب اللحظات وفق تمفصل محدد)[3]

ويتميز الانسان بكونه عادة ما يستخدم في حديثه عبارات وكلمات ذات دلالة زمنية مثل: عندما، وبعد، وقبل، وحينئذ، والماضي والحاضر والمستقبل، وهي أوصاف للزمن ومظاهره لا يثير استخدامها أية مشكلة، لكن كلما انتقل الأمر إلى مستوى التشبيهات والاستعارات إلا وبرزت صعوبات تواصلية في حديث الأفراد.[4]

فالزمن هو تقدم الأحداث بشكل مستمر وإلى ما لا نهاية بدءا من الماضي مرورا بالحاضر وصولا إلى المستقبل، وربما يكون الوصول إلى تعريف معين للزمن من أعصى التعريفات، حيث أن الزمن غالبا ما يتم الشعور به، أو يتم تخمينه، وبالتالي فهو يختلف باختلاف وجهة النظر التي ننظر بها... وفي هذا السياق فإن **أرسطو** يدرس الزمن في خصائصه وحقيقته في الفصل الرابع من كتاب الطبيعة، حيث يربط الزمن بالحركة، ويرى أن العلاقة بينهما كعلاقة العدد بالمعدود، وعرف الزمن بأنه "مقدار الحركة بحسب المتقدم والمتأخر"[5]

وحاول **كانط** أن يتصور الزمن كإحساس ذاتي، فقد رأى الزمن لا بصوفه خاصية من خصائص العالم الخارجي، ولكن بوصفه مقولة من مقولات الذهن وضرورية لترتيب خبرتنا، وتساءل البعض كيف يمكن أن تشوه الانفعالات إحساسنا بالمدة والتتابع تشويها جسيما، بواسطة درجة اهتمامنا أو إثارتنا أو ضجرنا...[6]

وتماشيا مع هذا، فقد أولى **برغسون** اهتماما بالغا بالزمن باعتباره من المقولات الأساسية في الفكر البرغسوني بحيث لا يمكن فهم فلسفته إلا إذا فهمنا مختلف الخصائص التي ينسبها للزمان والمكان، فقد عرف برغسون الزمن على أنه "دفق مستمر حي وديمومة متصلة الحركة، والإنسان وحده بين الكائنات الذي يعي الزمن والديمومة، فلا الطبيعة تشعر بالزمان ولا الكائنات الحية الأخرى بالقادرة على تمييز مكونات الزمان بين ماض وحاضر ومستقبل"[7]

ولتوضيح فكرة الإنسان عن الزمن يجدر بنا أن نحدد أهم الخصائص التي تميز هذا المفهوم:

- أن التاريخ نسبي في صفته، إلا أنه مستقل إلى حد ما عن الأحداث الزمنية، بمعنى أننا نتحدث عن التغيير والثابت في الزمن، وبطئه وسرعته وكأنه زمن موضوعي.

- يتضمن الزمن ترابطا جدليا ما بين السابق واللاحق أو الما قبل والما بعد، أي صفة من صفات الترتيب يتداخل فيها الماضي والحاضر والمستقبل، فالأحداث يمكن أن تكون متزامنة إلا أن اللحظات الزمنية لا يمكن أن تتزامن، ومن هنا نستنبط إحدى الصفات الجوهرية للزمن وهي لا معكوسيته، هذه الصفة لا يمكن فهم التاريخ بدونها، بما في ذلك الكرونولجيا والـــتأريخ.[8]

إن ما يتضح من خلال الأدبيات الكثيرة التي تناولت مفهوم الزمن، أن هناك أزمنة متعددة بالنظر إلى الزاوية والمقياس الذي تنظر من خلاله إلى هذا المفهوم، وإن ما يهمنا بالأساس في هذه الورقة البحثية هو التركيز على مفهوم الزمن التاريخي، وتقديم إحاطة نظرية إبستيمولوجية له، فكيف عرف الباحثون والمؤرخون مفهوم الزمن التاريخي؟

2- إحاطة نظرية لمفهوم الزمن التاريخي:

2-1 المؤرخون والزمن التاريخي:

إن التاريخ علم متزمن، فهو الوحيد بين العلوم الذي يقوم الزمن في قاعدته، فالتاريخ ليس شيئا سوى إضافة الزمن إلى الحدث حتى لا يصبح أقصوصة أو أسطورة، فالحدث خلال الزمن هو الاسم البديل الممكن لكلمة تاريخ، فهو يسير في ثلاثة حدود: الإنسان والمكان والزمان، تلك هي ثلاثية التاريخ الرئيسية التي تدخل على موضوعه المتحولات الواسعة المدى، فكافة العلوم لا يدخل الزمن في حسابها، ولا يلعب بقوانينها، إلا التاريخ فإنه لا يعيش ولا يوجد دون البعد الزمني.[9]

والزمن التاريخي سلبي فهو الزمن الذي انقضى، وليس الإيجابي الآتي الذي تعيش فيه باقي العلوم وتتطور، وتبعا لذلك فإن كافة العلوم تتطور وتنمو بشكل كيفي إلا التاريخ فإنه ينمو بشكل كمي، بحيث يؤدي تراكم التطورات فيه إلى التطور الكيفي وإلى القفزات التاريخية، وإذا جردنا التاريخ من عنصر الزمن لا يبقى للوقائع أي معنى، فالمعنى يأتي مع الزمن الإنساني الذي يتصل بها فيعطيها مكانه من ماضي الإنسان.[10]

وحركة الزمن لا تسير على شكل مستقيم ممدود ولا بشكل مغلق أو لولبي، ولكن فيه الآلاف المسارات معا، وفيه الكثير من التراجع والتغير والتحول والسرعة في وتيرة لا يحضن كل ذلك إلا الزمن.

إن الزمن التاريخي إذن متصل اتصال حلقات الحضارة واتصال تقدمها المتواصل من البسيط إلى المعقد، ومن الأقل نضجا إلى الأكثر نضجا، إنه زمن ذو بداية، وبدايته هم الأقوام الذين تشهد حالتهم على ما كانت عليه البشرية في نشأتها، كما أن له غاية، وغايته هي ما يحصل من تحولات في مركز الحضارة الساخن.[11]

وقد اختلفت تصورات المؤرخين ونظرتهم للزمن التاريخي وتعددت نظرياتهم فيما يتعلق بتقديم وجهة نظر عن مسار هذا الزمن ككل... فقد اعتبر المؤرخون التقليديون بشكل عام موضوع التاريخ هو "الحدث التاريخي"، هو تعاقب أحداث التاريخ وتواليها في الزمان، بواسطتها بنو التاريخ وشيدوا صرحه، في حين لم يولوا "الزمان" سوى أهمية أقل، فهو مجرد إطار خارجي للأحداث، معطى بصفة مباشرة، خطي ومنسجم، لا يحتاج إلى تأسيس أو إعادة بناء، ففي الزمان تتعاقب أنماط الحياة، والتفكير وتتوالى حسب التاريخ وفتراته.[12]

على هذا النحو لم يتمكن المؤرخون اليونانيون من تأسيس علم التاريخ وبناء نظامه النظري، تبعا لتميز طبيعة تصورهم للتاريخ بالدورية، أي تلك العودة المنتظمة للفصول، ولحركة الكواكب فيما بعد، مما جعل التصور الإغريقي للزمن يتعارض جذريا مع الوحي المسيحي ومع تصور الكنيسة.[13]

وبهذا أقامت الإستوغرافيا المسيحية قطيعة أمام التصور الدوري للزمن الاغريقي، فخلال العصور الوسطى أدان بشدة القديس **أوغسطينوس** في كتابه "مدينة الله" الزمن الدنيوي الاغريقي ذو المسار الدائري، كما أنه أرجع سقوط الدولة الرومانية إلى الانتقام الإلهي... وهكذا لم يستند بناء مفهوم الزمن التاريخي وتحديد طبيعة مساره إلى أساس نظري، بل كان له كذلك خلفياته الأيديولوجية والمذهبية المتمثلة في فكرة "الاتصال التاريخي" نفسها وفي تعارضها مع فكرة "الانفصال"، فالملحدون رأوا تاريخ العالم باعتباره شكلا دوريا، حيث تولدت الحضارات، تزدهر وتموت الواحدة بعد الأخرى، في حين فرضت المسيحية تصورا خطيا للزمن معتبرة كل تاريخ العالم منذ خلقه إلى فنائه يقع في زمن واحد.[14]

إن هذه التصورات السابقة لمفهوم الزمن ستتعرض ابتداء من القرن السادس عشر إلى انتقادات كبرى، خاصة مع التحولات التي أنتجتها النهضة الأوروبية، وما أفرزته من اهتمامات بكل العلوم والتخلص من قيود الكنيسة المسيحية، وظهر تصور جديد للزمان، لا يعتبر الزمان الحقيقي رجوعا إلى الماضي ولا حتى بعثا وإحياء، بل يتسم بالثقة في المستقبل والتفاؤل بالتجديد والتحديث والابتداع وبدأت فكرة الدفاع عن قوانين التاريخ[15]

وفي هذا السياق، وإذا تحدثنا عن تغير النظرة التقليدية للتاريخ، سنستحضر أولا أحد رواد المؤرخين العرب وهو **عبد الرحمان خلدون**، قبل الرجوع مرة أخرى إلى نظرة الأوروبيين لمفهوم الزمن التاريخي بعد التخلص من قيود الكنيسة.

يعد ابن خلدون نموذجا لتطور الكتابة التاريخية العربية، وقد اعتمد التصور الدوري للزمن التاريخي، أي أن الزمن يسير في خط دائري ويتعارض كليا مع فكرة التقدم.[16]

وليست الفكرة هذه على وجاهة مبرراتها، القراءة الوحيدة الممكنة لمفهوم الزمن عند العلامة ابن خلدون، بل هناك قراءة أخرى تفيد أن الزمن عنده لا يسير في شكل دائري، بل في شكل حلزوني نحو أفق تقدمي، فلا يعثر قارء المقدمة على جملة واضحة يقول فيها ابن خلدون، بالحرف أن مسار التاريخ دائري، وإنما استنتج أكثر قراءه ذلك –وهو استنتاج منطقي طبعا– من وصف ابن خلدون لحركة الدول، فالدولة عنده تنشأ لتكبر ثم تنهار فتنشأ مكانها دول أخرى؛ تعيد الدورة عينها. الدورات التاريخية كلها، تتشابه في البداية والمآل؛ الخليفة دوما دولة جديدة تعيد الدور نفسه وتلقى المصير عينه.[17]

يرى نقاد هذا التصور الدائري للزمن ان خطورته تتمثل في إخضاع المستقبل للماضي، وما ينتج عن ذلك من نفي للتقدم وخلع الحرية عن الانسان وتبرير العجز والفشل بذريعة القدر، لكن المقدمة ضمت نصوصا أخرى فتحت افقا للتفكير في قضية التقدم عند ابن خلدون بشكل مختلف.[18]فقد رأى هؤلاء النقاد أن الزمن التاريخي عند ابن خلدون لا يسير في حلقة مفرغة تتنافى مع فكرة التقدم بل في شكل حلزوني...، وصحيح أن فكرة التقدم حديثة لا تنتمي إلى الإطار الإشكالي الخلدوني، لكن العلامة تنبه مبكرا إلى التبدل والتغير أهم الدائم في الأحوال، واعتبر أن ذهول المؤرخين عن التبدل والتغير أهم أسباب الخطأ في الرواية التاريخية، وقال في ذلك "من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال... أحوال العالم والأمم وعوائدهم لا تدور على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال"[19]

وإجمالا فعند حديثنا عن المؤرخون المسلمون نجدهم أنهم حافظوا أثناء تدوينهم للتاريخ على تعدد الأنماط والأزمنة التاريخية، فالتاريخ نشأ من تركيب أنماط تاريخية مختلفة من أيام ومغاز وفتوحات وغيرها، والعمل على إدخال تركيب الأنماط التاريخية في تاريخ واحد، دون تحقيق زمان تاريخي ينظم ويزمن المادة التاريخية، فلكل نمط أخباره وأسلوبه في الرواية وتقويمه وبالتالي زمانه، وإذا كان التقويم الهجري ساعد المؤرخ المسلم كأداة منهجية على توحيد التاريخ الإسلامي، فإن الممارسة التاريخية جعلت من التقويم الهجري مجرد أسلوب في التوقيت ومن السنوات مجرد وحدات زمنية.[20]

وإذا رجعنا إلى الحديث عن التطور الذي شهدته اوروبا خاصة بعد القطيعة مع الكنيسة ومع السيطرة المسيحية على الكتابة التاريخية، سنجد أول من تعمق في فلسفة التاريخ هو **جورج فيلهم فريدريش هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel** وذلك خلال القرن 19م، الذي اعتبر أنه لا يوجد زمن إلا بقدر ما يوجد تاريخ، وقد تناول هيغل الزمن ليس بالشكل الذي تناوله أفلاطون أو أرسطو أو القديس أوغسطين، ولكنه بصفته تاريخ يتعلق بالحوادث الإنسانية.

إن هيغل اعتبر أن المنهج الذي يتحرك به الزمن هو منهج جدلي يعتمد ثلاث خطوات: القضية ونقيضها ثم المركب منهما ثم الصيرورة، وهذه الأخيرة تتحول بدورها إلى قضية، وهذا التطور الجدلي ينطبق على كل الظواهر في الكون.[21]

إن أهم ما يمكن استنتاجه من نظرية هيغل الجدلية أنه أعطى للزمن معنى وغاية، فبعد أن كان عند اليونان مجردا يملأ الإنسان آناته بأفعاله، وانتقل إلى سيطرة مسيحية كنسية، ليصبح ذا وجود ووعي وغاية محددة وأصبح الإنسان مجرد وسيلة يستعملها الزمن ليتحقق وينشر وجوده.

وفي الحقيقة أن هيغل ليس هو الوحيد الذي ركز على هذه الوجهة من النظر، بل كل فلاسفة التاريخ حاولوا أن يعطوا للتاريخ والزمن معنى ودلالة ومعقولية، ويجنبوا تعاقب الأحداث العبثية والفراغ من المحتوى.

هذه الرؤية الجدلية الخلابة للزمن، هي التي شغف بها الهيغلي الشاب كارل ماركس، وألبسها ثوبا ماديا صرفا، حينما فسر الزمن وحركته تفسيرا اقتصاديا واجتماعيا وصراعا بين علاقات الإنتاج والقوى المنتجة يسير على وفق حركة ديالكتيكية إلى نهايته المحتومة وهدفه الختامي المتمثل في المجتمع الخالي من الطبقات والصراع الطبقي، حينئذ تزول الدولة وينتهي التاريخ، مع المجتمع الشيوعي المنشود حيث السعادة النقية والسلام الدائم والخبز الوفير والحرية الصافية والجمال العميم، إذ يكون الكل حسب قدرته ولكل حسب حاجاته.[22]

لقد جعل هؤلاء المؤرخين للزمن التاريخي مسارات متعددة، ودافع كل واحد منهم عن نظرته ورؤيته لمفهوم الزمن التاريخي وكيفية التعامل معه، إلا أن المفهوم التاريخي للزمن سيتسع مع مدرسة الحوليات والتاريخ الجديد ومؤرخيها الجدد الذين أرادوا تجاوز نظرة المؤرخ التقليدي للزمن التاريخي، تلك النظرة التي لا تعتبره سوى إطارا هندسيا ينظم توالي الأحداث وتعاقبها.

فكيف نظرت وفسرت مدرسة الحوليات مفهوم الزمن التاريخي؟

2-2 الزمن التاريخي عند مدرسة الحوليات:

ظهرت مدرسة الحوليات كرد فعل عن المدرسة الوضعية ونقائصها العديدة بالتفاف مجموعة من المؤرخين في أواخر العشرينيات (1929) حول مجلة الحوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، أمثال **مارك بلوك ولوسيان فيفر** ثم **فرنون بروديل** وغيرهم،[23] مقترحة برنامجا بديلا يروم فك الارتباط وإحداث قطيعة معرفية مع المشهد الذي ميز الأسطوغرافيا الفرنسية، هادفا في نفس الوقت إلى خلق نسق متلاحم من العناصر الجديدة والحاسمة في دراسة وكتابة التاريخ، وتركيز الاهتمام على القضايا الجديدة التي تمس التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديمغرافي والذهني، ثم توسيع حقل المعرفة التاريخية وذلك بالانفتاح على مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية، ومواصلة الاحتكاك بها، وفرز أسلوب جديد في طرح الإشكاليات، وتصور جديد لزمن التاريخ.[24]

لقد كان تأسيس مدرسة الحوليات بداية للقطيعة مع التصور الماضوي الصرف في الخطاب التاريخي، والربط بين الماضي والحاضر من خلال بناء تاريخ يكون مجال البحث فيه ليس الماضي فقط ولكن المجتمع المعاصر أيضا، فقد اهتمت مدرسة الحوليات الفرنسية بالزمن الراهن في بدايتها حيث أن أهم تجديد أدخله مؤرخو الحوليات في الدراسات التاريخية هو الربط بين الماضي والحاضر.[25]

فإذا كان المؤرخ الوضعاني يرى أن الحدث موجود بذاته، وبالتالي يعتبر الزمن من قبيل المطلق المقدس، وظيفته وضع الأحداث في إطار كرونولوجي، فالمؤرخ الجديد، يقبل ويدبر بين الماضي والحاضر، بين مختلف لحظات الماضي، يشتغل بتعدد الأزمنة بديلا للزمن الخطي، يطوع الزمن حسب طبيعة السؤال/المشكل والمسار المنهجي الذي يسلكه للجواب عليه.[26]

لقد كان الثنائي **لوسيان فيفر** (Lucien Febvre) و**مارك بلوك** (Marc Bloch) ينظران إلى الكتابة التاريخية على أساس طرح المشكلات الكبرى، في سياق الزمن التاريخي الطويل، وذلك لمحاولة إخراج الكتابة التاريخية من النمطية الحوادثية[27]، فالزمن التاريخي لدى مارك بلوك هو البلازما plazma التي تسبح فيها الأحداث الاجتماعية، وهو زمن دائم التبدل والاستمرارية، وقد أكد في نظريته عن التاريخ التراجعي على أن الحاضر والماضي في نفس المحتوى من الأهمية.[28]

ففي كتابه le métier d'historien يقول:

«Comprendre le passé à partir du présent, et comprendre le présent à la lumière du passé »[29]

وإذا كان التاريخ يرتبط جدليا بالزمن والحركة والتغير فإن هذه العناصر الثلاثة في نظر لوسيان فيفر لم تعد مجرد أطر خارجية تنظم توالي أحداث التاريخ وتعاقبها، بل أصبحت خاصيات تمثل الجوهر الحقيقي للتاريخ، فالزمان لم يعد في التاريخ بل أصبح "زمن التاريخ"[30]

إن مدرسة الحوليات حققت تحولا معرفيا كبيرا في حقل التاريخ، واعتبرت الزمان الموضوع الرئيسي للتاريخ، وأكدت على تعددية الزمن وقيمة الزمن الطويل، فالفترة الزمنية الطويلة، تنقسم إلى أزمنة وضعية متعددة يتركب كل منها فوق الآخر[31]، وانسجاما مع ذلك أكد **فرنان بروديل** (Fernand Braudel) أن التاريخ متعدد الاتجاهات ولا يسير دوما إلى الأمام، بل يتراجع كذلك، وأنه جدلية للمجال والزمن المتعدد (زمن جغرافي – زمن اجتماعي – زمن فردي)[32]... فلبروديل دراسات كثيرة أهمها: المتوسط زمن فيليب الثاني (1949) والحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية من القرن 15 إلى القرن 18 (1980)، ويستنتج قارئ كتابات هذا المؤرخ إيمانه بالحتمية وبالوزن الكبير للبنى المادية ذات الأمد الطويل وبالطبع الثانوي جدا للسياسي وحتى لحركة الأفكار.[33]

كما أن بروديل أدرك خلال دراساته أن لا وجود للزمن في ذاته وبذاته بل في علاقته الجدلية بالمدى الجغرافي، متأثرا في ذلك بأفكار جغرافية نشرها كل من **فيدال دولا بلاش**(Vidal de la Blach) ، **بلانشارد**(Blanchard) ، **ديمانجون**(Demangeon) ، و**فيفر**(Febvre) ... إلى حد يقول عنه **إيف لاكوست** (Yves Lacoste) "بروديل مؤرخ كبير جدا لكنه جغرافي كبير، حتى لو نفى عن نفسه التهمة"[34]

وهكذا استطاع بروديل أن يوسع مساحة التناهج بالحوار مع المقولات والمفاهيم الرائجة في العلوم الاجتماعية المجاورة، ولاسيما الجغرافيا والاقتصاد وعلم الاجتماع، وأن يبتكر تصورا جديدا للتاريخ يستند إلى تعدد الأزمنة أو الآماد، كسلم من المفاهيم لفهم حركة التاريخ، من البنيات أو الزمن الطويل إلى الظرفية أو الزمن الدوري، إلى الأحداث أو الزمن القصير.[35]

ومنه فإن بروديل حدد ثلاث مستويات للزمن التاريخي سنحاول التطرق إليها بشكل مختصر:

- الزمن السياسي أو الزمن الحدثي القصير المدى: وهو زمن أمده قصير، وهو التاريخ الوقائعي، وهو زمن الأفراد، وزمن التاريخ التقليدي القائم على الاشكال الحكومية والسياسية والعسكرية والفنية، وبالتالي لا يعطينا الوسيلة الكافية لشرح التغيير الاجتماعي، فقيمته ثانوية

جدا فهو هيجان سطحي وتاريخ ذو ذبذبات قصيرة وسريعة، والمطلوب في رأي بروديل الصعود من الأمواج إلى المد والجزر الذين يحدثانهما.[36]

- الزمن الاقتصادي والاجتماعي أو الزمن الظرفي والدوري: وهو زمن أمده متوسط والتغير فيه بطيء، ويهم المجموعات البشرية والاقتصاديات والدول.[37]، ويشمل عقدا من الزمن أو ربع قرن وهو نمط جديد للسرد التاريخي، واتجاه ينصب على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي تحت شعار التكميم، وبالتالي يظل مشدودا إلى مؤشرات الارتفاعات والانخفاضات الدورية للأثمنة وإلى مخلفاتها، وقد حقق هذا الاتجاه قطيعة حديثة العهد مع التاريخ الوقائعي (التاريخ القصير) ومن تم نتج عن ذلك انقلاب وتغير في المنهج، وانتقالات في مراكز اهتمام المؤرخين مع ظهور تاريخ كمي.[38]

- الزمن الجغرافي، أو الزمن الجغرافي التاريخي، أو الزمن طويل الأمد: وهو الأهم في نظر بروديل، وهو زمن شبه راكد وبطيء، ويهم تاريخ علاقة الانسان بمحيطه الجغرافي (المجتمعات الزراعية حيث التقنية محدودة، والفضاء والمناخ والتضاريس والمزارع والسواحل البحرية أشياء رئيسية جدا)[39]، فالمدة الطويلة من بين أزمنة التاريخ المختلفة وكأنها شخصية مزعجة معقدة لم يسبق لنا مصادفتها في غالب الأحيان، ومن تم فإن قبولها في صميم مهنتنا لن يكون لعبة بسيطة، أي ذلك التوسيع المعتاد للدراسات، كما أن الأمر الآن يتعلق أيضا بخيار تكون وحدها المستفيدة منه، فإن قبول المدة الطويلة معناه بالنسبة للمؤرخ أن يرتضي تغيير أسلوبه واتجاهه، ويقبل بقلب فكره ويتبنى تصورا جديدا للاجتماعي، ومعناه التعود على زمن جرى إبطاؤه في حدود المتحرك.[40]

فقد جعل فرنان بروديل مفهوم الزمن الطويل في قلب العملية التاريخية بتعبير ميشال دو سيرتو (Michel de certeau) فالزمن الطويل حسبه، هو قعر التاريخ ومركز الجاذبية هو الذي يجر إليه الزمنين الدوري والقصير، ويمكن من تفسيرهما.[41]

عموما لقد كان المغزى الأساسي من العمل البرودلي هو إدراك التاريخ في تعددية زمنه من خلال الثالوث: زمن طويل — زمن الظرفية – زمن قصير. لبلوغ تاريخ شمولي يبحث في تاريخ المجتمعات الكوني الكلي، وليس في التاريخ السردي الحدثي فقط، ومن ثم القدرة على الإحاطة بالمجتمع في بنياته وجغرافيته واقتصاده وذهنيته وعقليته وحضارته، ومن خلال احتكاك أكبر بين التاريخ وباقي العلوم الإنسانية الأخرى.[42]

فمنهجية بروديل تكمن في أن لكل سلسلة من الظواهر زمانياتها الخاصة وأن ما من سيرورة ملموسة تقع في مستوى واحد من المستويات الثلاثة، بل لكل منها تناغم أكبر وأقل وضوحا مع هذا المستوى أو ذاك، وعلى المؤرخ أن يهتدي إلى هذا التناغم وإلى الترابطات الممكنة بين مختلف المستويات حتى يتمكن من إعادة بناء وحدة الظاهرة المدروسة، وأن القابلية للفهم تتبد مع السرعة وأنها تتبد عند الانتقال من أشد الايقاعات بطئا إلى أسرعها ومن أبعدها غورا إلى أكثرها سطحية.[43]

3- بعض أدوات قياس الزمن التاريخي

يركز التاريخ على دراسة الحدث البشري في الماضي، لكن دراسة الزمن في علاقته بالحركة وتوالي الأحداث والتطور تحيل على مفاهيم ذات الدلالة الزمنية كمفهوم الماضي والتطور والاستمرارية والقطيعة... ولدراسة هذه المفاهيم وقياس الزمن التاريخي تستخدم بعض الأدوات أو التقنيات المساعدة، مثل الكرونولوجيا والتحقيب...[44]

وفي هذا السياق سنحاول عرض أهم أدوات قياس الزمن التاريخي:

3-1 الكرونولوجيا:

الكرونولوجيا تقنية تقيس الزمن التاريخي، إنها تمكن من تحديد موقع المصادر والأحداث في سلم الزمن، وتمكن من تقييم الأحداث تاريخيا، ومن تم تسهم في بناءها[45]

إن أول ما تستجيب له الكرونولوجيا، من حيث هي تقنية هو مشكل التوقيت، إنها تجعل مختلف التقاويم والمقاييس الزمنية المستعملة في مجرى التاريخ تنتسب إلى زمن مشترك، وهو زمن مجموعتنا الشمسية الذي يجري حسابه طبقا لقوانين علم الفيزياء والفلك[46]، فعندما تعجز اليوميات عن تناول مدة زمنية طويلة، فإن نظام الكرونولوجيا يلجأ إليه في هذه الحالة، ويتم وضع الأنظمة الكرونولوجية المختلفة وفق نفس المبدأ، عند إدراج السنوات ضمن عصر أو حقبة معينة بعد تحديد نقطة انطلاق تكون موافقة لحدث أو واقعة ذات أهمية خاصة، فتتولى إداك باقي السنوات في شكل زمني خطي.[47]

فالكرونولوجيا بوصفها مبدأ الترتيب، من وضع الوقائع داخل نظام الزمن موقع التقدم أو التأخر أو التلازم، وهذا الأمر لا يتيسر دائما لأن الوقائع غالبا ما تتشابك وتتداخل، وفي هذه الحالة ينصح **أنطوان بروست (Antoine Prost)** بالتزام المرونة في الترتيب الكرونولوجي وإبراز فروقه وتأويله.[48]

وأخيرا فإن في وسع النظام الكرونولوجي الذي لا يشكل في بناء الزمن التاريخي سوى رسم الملامح الأولية، أن يسهم في تهيئ استدلال عن طريق الإيحاء بتسلسلات بين الأحداث والاشارة إلى ترابطات بينها، وهذا ما أبرزه **هنري مونيو(Henry Monio)** حين أكد على أن الكرونولوجيا من شأنها الكشف عن تزامنات بين أماكن كان الفكر فيها إلى ذلك الحين يجري على نحو منفصل، واختلالات داخل وقائع كان الفكر فيها إلى ذلك الحين يتم على نحو منسجم.[49] وبذلك تنشئ الكرونولوجيا تناظمات وانماطا جديدة لكتابة التاريخ ضمن مقاييس مختلفة.

3-2 التحقيب:

أشار **بروست (Prost)** في الدرس المخصص للزمن التاريخي، إلى أن التحقيب ثاني تمرين في اشتغال المؤرخ بالزمن بعد تمرين الكرونولوجيا، ذلك أن صعوبة الإلمام بالزمن في صيغته الكلية، تدفع المؤرخ إلى استعمال التحقيب بغرض البحث عن التمفصلات والمنعطفات، ورصد التحولات والتغيرات التاريخية التي يريد دراستها وتفسيرها.[50]

فقد ابتدأ العمل التاريخي تحقيبيا ثم صار لاحقا كتابة ترصد التفاصيل، ليعود في الآونة الأخيرة ليهتم بالتحقيب، ولئن كان العمل التاريخي ينحو منحى تحقيبيا في البدايات، فذلك لندرة المعارف وشح المعلومات، أما الآن فدواعي الاهتمام بالتحقيب هو نقيض هذا المعطى الأول، فأمام كثرة الأحداث التاريخية وأمام استغراق العمل التاريخي في الجزئيات التي تستعصي على إدراك العقل البشري، راح المؤرخ يبحث عن خطاطات تقدم له مسيرة البشرية في خطواتها العريضة، وتنقذه من التيه في أحداث مهما أوتي العقل من حافظة قوية لن يستطيع الإحاطة بها.[51]

وحسب العروي فالتاريخ بدأ في صورة تحقيب، والتاريخ المكتوب هو من الأصل تقويم وتحقيب، أما التجزئة الفلكية حسب السنين والعقود فإنها نمت في مرحلة لاحقة[52]

والتحقيب هو من الحقبة، وهي وحدة زمنية متميزة وتقترب في معناها من المدة، وهي الزمن الذي يتدفق بين حدين ملحوظين لظاهرة معينة يمثلان بداية ونهاية، فالتحقيب عملية ذات مظهرين، الأول موضوعي يستوحى من الواقع التاريخي، حيث يطرحه المؤرخون في شكل فرضية بإمكان الدراسات المنجزة أن تؤكد أو تفند صحتها، والمظهر الثاني يرتبط بموقع المؤرخ في الحاضر والذي ينظر من خلاله إلى الماضي والمستقبل، وهكذا سنجد تعددا وتنوعا في التحقيبات المقترحة سواء على صعيد التاريخ العالمي أو التواريخ المحلية، وذلك نتيجة تعدد المعايير المعتمدة من طرف كل اتجاه أو مدرسة تاريخية في تقسيم التاريخ إلى حقب[53]

والتحقيب في التاريخ يعني تقسيم التاريخ في الزمن إلى حقب متميزة، إما بالنسبة لتاريخ عالمي مفترض، أو بالنسبة لتاريخ حضارة ما بين ظهورها وسقوطها، أو بالنسبة بتاريخ أمة أو بلد أو جماعة.[54]

إن تقطيع الزمن التاريخي شرط لازم لضمان تناول جيد للإشكالية التاريخية المطروحة، هذا التقطيع هو التحقيب، بوصفه تمرينا أساسيا لإضفاء الطابع التاريخي على موضوع الدراسة التاريخية، يطال التفكير التاريخي برمته، بحكم أنه يستند على مبدأين: هناك من جهة، مبدأ التصنيف والترتيب، ومن جهة أخرى هناك مبدأ التأويل لكشف الوضوح والقابلية للفهم. وقد لخص الدكتور **محمد صهود** القيمة العلمية للتحقيب بكونه مجهود فكري إبداعي يعكس المفهمة والتقويم في العمل التاريخي من خلال تحليل بنية الزمن التاريخي.[55]... فكل عمل تاريخي يستلزم إجراء تقطيع للمادة التي يعالجها لكي تكون مقاربة الإشكالية المختارة أجود، ويكون وضوح موضوع الدراسة أحسن، فالتحقيب ممارسة متأصلة جدا في التاريخيات، ويشتمل منتوجه الذي هو الحقبة على كثير من العيوب، بينما ينطوي التحقيب بوصفه سيرورة فكرية على كثير من المحاسن.[56]

ويظل التحقيب، رغم بعض الانتقادات متأصل الجذور في التاريخيات وفي مستويات عدة، فعلى المستوى الاجتماعي يضفي على الحقب طابع مؤسساتي من قبل الهيئات الجامعية، وتتعزز هذه الوظيفة المؤسسية بوظيفة تربوية هاجسها إعداد ذاكرة جماعية ذات معالم مرجعية قارة، وذلك باللجوء إلى تصنيفات كرونولوجية مكرسة، أما على المستوى الميتودولوجي، فتحث كل حقبة المؤرخ على التخصص حتى يكون على صواب في أحكامه ذلك لأنها تستلزم التحكم في ممارسة خاصة، وما يعزز هذا التخصص هو التقطيع التحقيبي الذي تخضع له في غالب الأحيان المصادر وأنواع الوثائق وأماكن حفظها، وعلى المستوى الابستيمولوجي فتستلزم خصوصية كل جزء من الزمن عملية تحقيبية، لكن المؤرخ لا يعيد بناء الزمن في كليته كلما قام ببحث، إنه يتلقى من المؤرخين الآخرين زمنا سبق أن أخضع للمعالجة والتقطيع والتحقيب.[57]

وعلى كل حال فالتحقيب يكتسي أهمية كبيرة، حيث يساعد على إدراك واستعياب التسلسل الزمني والتطور التاريخي وتعميق الوعي بالترابط القائم بين الحقب التاريخية وتكوين نظرة شمولية عن الماضي.[58]

وبالتالي فهو ضروري للاشتغال بالزمن التاريخي، فهو حسب الدكتور **محمد صهود**، مفهمة ترمي إلى إبراز تحول المجتمع في الزمن ووتائر هذا التحول ومنعطفاته، وتتم هذه المفهمة عبر سيرورة منهجية تتأسس على صياغة إشكاليات تحقيبية تستهدف بناء الحقب وإنتاج مفاهيم تحقيبية، عبر القيام بعمليات توقيت الوقائع والأحداث التاريخية، انطلاقا من استقراء الوثائق ووضع كرونولوجيا لهذه الوقائع والأحداث ثم تأويلها.[59]

ومن خلال كل ما سبق، يمكن القول أن للتحقيب التاريخي فوائد منهجية، منها تجميع وثائق وأحداث ومفاهيم تاريخية في إطار زمني منسجم ومتماسك، يسهل تناول واستجلاء مرجعيته العامة، لكن له، بالمقابل، سلبيات منها انغلاق الفترة أو الحقبة على نفسها، كما أن الانسجام الذي يميز الحقبة صوريا، قد يخفي الاختلافات والتزامنات الكامنة وراء كل تحقيب.[60]

خاتمة:

في ختام هذا المقال نؤكد على أهمية الزمن التاريخي كأحد الأعمدة الأساسية لفهم التاريخ، حيث أنه ليس مجرد مقياس للوقت، بل هو إطار يحدد كيفية إدراكنا للأحداث التاريخية ومعانيها. وهذا ما عبر عنه وأكد عليه الفلاسفة المؤرخون عبر العصور—من المؤرخين القدامى إلى مدرسة الحوليات— فالزمن التاريخي يمثل أداة أساسية لفهم الأحداث والمعاني التي تشكل التجارب الإنسانية، كما أن إدراك الأبعاد المختلفة للزمن وكيفية تأثيره على مسارات التاريخ يعزز من قدرتنا على تفسير الوقائع من زوايا متعددة.

إن أهمية الزمن التاريخي تكمن في دوره الحيوي في بناء سرديات تاريخية غنية ومعقدة، تساهم في فهم سياقاتها الثقافية والاجتماعية. في عالم يتغير بسرعة.

الهوامش:

[1] Saint Augustin. Les Confessions -livre 11- chapitres XII (ce que dieu faisait avant la création du monde) version électronique.

[2]محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق محمد خاطر، طبعة جديدة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،1995، ص 116

[3] Catherine Malabou : le temps, profil notions philosophique n°778
http://www.sosphilo.com/oeuvres-commentes/dossiers/dossier19/temp.html

[4]محمود بوعراب، تصورات التلاميذ حول مفهوم الزمن التاريخي في السنة الأولى ثانوي إعدادي نموذجا، رسالة لنيل دبلوم الماستر في علوم التربية،2008 ص 23

[5]محمد عبد الرحمان مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1983، ص 133

[6]المصطفى لخصاصي، تدريس التاريخ والجغرافيا، مرجع سابق، مطابع أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2012، ص 61

[7]شاكر مصطفى، التاريخ "هل هو علم؟"، مجلة عالم الفكر، المجلد الخامس، العدد الأول، عن وزارة الاعلام في الكويت،1974، ص 184

[8]البشير تامر، مساهمة في ديداكتيكية الفكر التاريخي اقتراح نموذج ديداكتيكي لتعلم مفهوم الزمن التاريخي في السنة الثالثة من السلك الثانوي الإعدادي، أطروحة دكتوراه في علوم التربية، 2005، ص 96

[9] مصطفى شاكر، مرجع سابق ص 182

[10]مصطفى لخصاصي، مرجع سابق، ص63

[11]سالم يفوت، الزمان التاريخي من التاريخ الكي إلى التواريخ الفعلية، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان،1991، ص 18

[12]سليم رضوان، "الزمان التاريخي"، مجلة الجدل، العدد 5-6، العكاري، الرباط، 1987، ص 53

[13]محمد مصادي، مقاربة أولية لدراسة وقياس تشكيل ونمو مفاهيم زمنية لدى عينة من تلامذة المدرسة الابتدائية، مركز تكوين مفتشي التعليم، شعبة الاجتماعيات، الرباط، 1988، ص 138

[14]محمد مصادي، مرجع سابق، ص 140

[15]سالم يفوت، مرجع سابق، ص 15

[16]ابتسام فراج،" مفهوم الزمن عند ابن خلدون"، مجلة مؤمنون بلا حدود، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية،2021

[17]جونستون بوتول، ترجمة غنيم عبدون، ابن خلدون فلسفته الاجتماعية، طبعة الأقلام عربية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2019، ص 55

[18]ناصيف ناصر، الإشارات والمسالك: من إيوان ابن رشد إلى رحاب العلمانية، دار الطليعة، بيروت لبنان،2011، ص 103

[19]عبد الرحمان ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الطبعة الأولى، دار يعرب، دمشق،2004، ص 116

[20]المصطفى لخصاصي، مرجع سابق، ص 65

[21]أحمد محمد صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر،1980، ص 206

[22] قاسم المحبشي،" فلسفة التاريخ في القرن التاسع عشر"، مؤسسة الحوار المتمدن،2022
https://www.ahewar.org/debat/nr.asp?nm=1

[23] فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس،2000، ص 107

[24]منير الروكي، "مفهوم الزمن في المدارس التاريخية الحديثة، مدرسة الحوليات نموذجا"، دورية كان التاريخية، العدد 33، 2016، ص 107

[25]محمد العيادي، "المدارس التاريخية الحديثة ومسألة الحدود بين العلوم الاجتماعية"، مجلة أمل: بعض القضايا المنهجية لعلوم التاريخ، العدد 15، 1997، ص 40

[26]شكير عكي، التفسير التاريخي تأصيل إبستيمولوجي وتطبيق ديداكتيكي، الطبعة الأولى، نادية للنشر، الرباط، 2021، ص 29

[27] محمد مصادي، مرجع سابق، ص 148

[28]محمد العيادي، مرجع سابق، ص 41

[29]فريد بن سليمان، مرجع سابق، ص 110

[30] سليم رضوان، مرجع سابق، ص 54

[31]المصطفى لخصاصي، مرجع سابق، ص 65

[32]فريد بن سليمان، مرجع سابق ص 111

[33] الهادي التيمومي، المدارس التاريخية الحديثة، الطبعة الأولى، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،2013، ص 185

[35] محمد حبيدة، المدارس التاريخية برلين- السوربون-استراسبورغ من المنهج إلى التناهج، دار الأمان، الرباط، ص 89

[36] الهادي التيمومي، مرجع سابق، ص 186

[37]نفسه، ص 186

[38]المصطفى لخصاضي، مرجع سابق، ص 66

[39]الهادي التيمومي، مرجع سابق، ص186

[40] فرنان بروديل، "التاريخ والمدد"، بيت الحكمة، مجلة مغربية للترجمة في العلوم الإنسانية، العدد الخامس،1987، ص 33

[41] محمد حبيدة، مرجع سابق، ص 92

[42] خالد فؤاد طحطح، "إشكالية مفهوم الزمن التاريخي في المقررات المدرسية"، دورية كان التاريخية، العدد 6، 2009، ص 71

[43]مصطفى حسني إدريسي، الفكر التاريخي وتعلم التاريخ، الطبعة الأولى، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط،2021، ص 46

[44]شكير عكي وآخرون، مصوغة تكوينية في مادة التاريخ والجغرافيا، تخطيط وضعيات تعليمية تعلمية ووضعيات تقويمية استنادا إلى المرجعية الديداكتيكية، 2009، ص 13

[45]مصطفى حسني إدريسي، مرجع سابق، ص 37

[46]نفسه، ص39

[47] البشير تامر، مرجع سابق، ص 99

[48]مصطفى حسني ادريسي، مرجع سابق، ص 39

[49]هنري مونيو، 1993، ورد عند مصطفى حسني إدريسي، مرجع سابق، ص 39

[50] شكير عكي، التفسير التاريخي، مرجع سابق، ص31

[51]عادل الطهيري، "مراجعة التحقيب: جاك لوغوف نموذجا"، أواصر للثقافة والفكر والحوار، 2021 https//www.awaser.net/2021/05/21

[52]عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،2005، ص 272

[53]المصطفى لخصاضي، مرجع سابق، ص 67

[54] أحمد توفيق، "تاريخ المغرب في القرن 19، أفكار في التحقيب"، مجلة المشروع، عدد 9، ص 13

[55]شكير عكي، التفسير التاريخي، مرجع سابق، ص 31

[56] مصطفى حسني ادريسي، مرجع سابق، ص 39

[57]نفسه، ص 40

[58]المصطفى لخصاضي، مرجع سابق، ص 68

[59]محمد صهود، التحقيب التاريخي: إسهام في التأصيل المنهجي والابستيمولوجي، الرباط،2016، ص 156

[60] شكير عكي، التفسير التاريخي، مرجع سابق، ص 33